النظريات المرتحلة في المرحلة الأدائية

غفران أحمد مهدي
أ.د أوراد محمد كاظم
قسم اللغة العربية/ كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة بابل/ العراق

Nomadic theories in the performance stage

Ghufran Ahmad Mahdi
Prof. Dr. Awrad Muhammad Kazem
Department of Arabic Language/ College of Education for Human Sciences/ University of Babylon/ Iraq
mastergha@gmail.com

Abstract :
In the West, attempts have appeared to build a new philosophy that fills the gaps, loss, and uncertainty resulting from postmodernity, especially after the increase in statements and criticism of its hypotheses. These theories are represented by generative or allegorical anthropology, and phenomenological theory.
Keywords: theories, nomadic, performance stage

الملخص :
ظهرت في الغرب محاولات لبناء فلسفة جديدة تملأ مواطن الفراغ والضياع واللايقين الناتجة عمّا بعد الحداثة، وخاصة بعد تزايد المقولات والأعمال النقدية لفرضياتها، ومن هذا المنظور سعت الدراسة الى بيان النظريات المرتحلة في المرحلة الأدائية حيث سيتم تناول أهم الاطروحات التي بلورها المنظرون والنقاد مع التركيز على الملامح العامة والقوانين التي ارتحلت لتحلّ رحالها في فضاء الأدائية وتتمثل هذه النظريات بالانثروبولوجيا التوليدية أو الإشارية، والنظرية الظاهراتية .
الكلمات المفتاحية : نظريات، مرتحلة، مرحلة أدائية.

المقدمة :

تولدت مجموعة من النظريات والاتجاهات في المرحلة الأدائية، بناء على مؤشرات ساعدت في ظهورها وتكيفها مع المرحلة الجديدة، وما ساعد على ذلك أيضا أصوات المنظرين التي غدت تتعالى بضرورة التغيير ومنهم (آلان كيربي) الذي بشّر بالانتقال الى مرحلة جديدة، فيقول: " لقد تغير العالم، ولابد للنظرية أن تتغير"[١]، وهذا ما أشار اليه (إدوارد سعيد) في مقالة له بعنوان (انتقال النظريات) إذ " تنتقل الأفكار والنظريات– على غرار الناس ومدارس النقد– من شخص الى شخص، ومن موقف الى موقف، ومن حقبة الى أخرى. وعادة ما تتغذى الحياة الثقافية والفكرية، على يد دورة الأفكار هذه، وتستمد منها أسباب الحياة والبقاء"[٢]، ذلك أن النظرية مهما كانت لا تنطلق من فراغ وانما تبنى على

---

(١) Digimodernism: How New Teechnologies Dismantle the Postmodern and Reconfigure Our Culture, Kirby,2009, 32. نقلا عن ريهام حسني، ما بعد الإنسانية الرقمية، بعد ما بعد الحداثة : الجنس الأدبي وتحولات العصر، سلسلة روابط رقمية، العدد الأول، ٢٠١٨، ٧٤.

(٢) إدوارد سعيد، انتقال النظريات، ترجمة : أسعد رزوق، مجلة الكرمل (نيقوسيا، مؤسسة بيسان)، العدد ٩، ١ يوليو ١٩٨٣، ١٢.

أسس ومعارف ونظريات سابقة مخزونة في ذاكرة العصر التاريخية والثقافية تسهم في جزء منها- بالتوافق معها أو بالثورة ضدها - في تكوين نظرية أو أتجاه ما. ومن النظريات المرتحلة في المرحلة الأدائية :

أولا : الانثروبولوجيا التوليدية/ الإشارية

تُعرّف الانثروبولوجيا بصورة عامة بكونها "دراسة الإنسان وأعماله"[١]، وتحاول منذ تأسيسها الإجابة عن السؤال المحوري كيف توصل الإنسان الى ذلك؟ فخاض في مظان هذا التساؤل العديد من الباحثين الانثروبولوجيين منطلقين من تساؤلات أكثر تشعبا وأعمق بحثا في كل ما يتعلق بتاريخ الإنسان وثقافته.

ومن أبرز المؤسسين الانثروبولوجيين[*] الذين أرسوا المعالم الأساسية لهذا الفرع المعرفي هم : (فرانز بواس)، و(برونيسلاف مالينوفسكي)، و(أ.ر.. رادكليف براون)، و(مارسيل موس)، فاشتركوا جميعهم – مع اختلاف طريقة العمل والتوجهات- في محاولة ترسيخ الانثروبولوجيا على أساس فكرة مفادها " أن السمات الثقافية لم يعد في الإمكان دراستها بمعزل. فالطقس لا يمكن أن يختزل في رواسب (survivals) لماض افتراضي منفصلة. إذ يجب أن يُلاحظ في سياق علاقته بالمجتمع الكلي الذي يعتبر جزء منه في هذا المكان وتلك اللحظة. ويجب أن يدرس في سياقه – إن هدفه هو وصف المجتمعات و الثقافات ككل متكامل"[٢].

ومن هذا المنطلق تعددت الآراء واختلفت التوجهات وتنوعت النظريات، فهناك من درس الانثروبولوجيا ضمن نطاق القرابة مثل (ماير فورتس)، و(كلود ليفي شتراوس)، إذ كان اهتمامها أقرب لاهتمامات (رادكليف براون)، فيرون أن " القرابة المحرك الذي يدفع المجتمع البدائي والصمغ الذي يحافظ على تماسكه والعالم الأخلاقي الذي يعيش فيه"[٣].

وفي انعطافه عن نظام القرابة وجد منظرو الأنثروبولوجيا في المرحلة الأدائية أن الإشارة البدئية أو التمثيل هي أساس المجتمع وعلى أساس ذلك أُسست نظرية متكاملة هي الانثروبولوجيا التوليدية التي يعد الناقد (إريك غانس)[*] مؤسسا لها، فتسعى هذه النظرية من خلال سلسلة من الفرضيات الى الكشف

---

[١] بيرتي ج بيلتو، دراسة الانثروبولوجيا، المفهوم والتاريخ، ترجمة : كاظم سعد الدين، بيت الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠١٠، ١٧.

[*] فرانز أوري بواس، عالم انثروبولوجي ألماني المولد أمريكي الجنسية من مواليد (١٨٥٨- ١٩٤٢)، أطلق عليه لقب (أبو الانثروبولوجيا الأمريكية).

- برونيسلاف كاسبر مالينوفسكي، عالم انثروبولوجي وأثنوغرافي بولدي المولد بريطاني الجنسية من مواليد (١٨٨٤ – ١٩٤٢) ويعد رائدا في علم الإنسان التطبيقي.
- ألفريد رادكليف براون، عالم انثروبولوجي أنجليزي من مواليد (١٨٨١ – ١٩٥٥)، عدّ برفقة مالينوفسكي مؤسسا لمدرسة الانثروبولوجيا البريطانية الحديثة .
- مارسيل موس، عالم انثروبولوجي فرنسي – وهو ابن أخت الفيلسوف إميل دوركايم- من مواليد (١٨٧٢ – ١٩٥٠).

[٢] توماس هيلاند إريكسن، وفين سيفرت نيلسن، تاريخ الانثروبولوجيا، ترجمة وتقديم : عبده الريس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٤، ٩٥.

[٣] توماس هيلاند إريكسن، وفين سيفرت نيلسن، تاريخ الانثروبولوجيا : ١٢٧، ١٢٨.

[*] إريك لورانس غانس، ناقد أدبي أمريكي وفيلسوف لغوي وعالم أنثروبولوجي ثقافي. من مواليد ٢١ أغسطس (١٩٤١). له مؤلفات متعددة ومنها سجلات الحب والاستياء المنشورة على شبكة الانترنت، وتتألف هذه السجلات من تأملات في كل شيء

عن أصل واحدي، على الرغم من تشبث منظري ما بعد الحداثة بفرضية عدم استقرار المعنى إذ لا وجود للأصالة في ظل سيطرة الايهام والغياب وعدم الوضوح.

يستعرض الناقد (غانس) كيفية تبلور هذه النظرية وأنها ترجع الى عام (١٩٧٨) وذلك عندما ألتقى بالفيلسوف الناقد (رينيه جيرار)(*) وبالاطلاع على أفكاره حاول (غانس) "أن يوفق بين فكرة جيرار عن توليد الإنسان من تكثيف المحاكاة، وفكرته التي تقول إن الجملة التقريرية مشتقة من شكل أكثر بدئية أطلق عليه (غانس) الإشاري (Ostensive) (تعريف الشيء بوساطة الإشارة اليه)"[١].

ينطلق (جيرار) في كتابه (العنف المقدس) من طرح مؤداه إن المحاكاة ليست وقفا على العالم الإنساني، لكنها تكتسب فيه مع ظهور اللغة والفكر الرمزي بعدا ثقافيا واجتماعيا يحول دون اختلاط المملكتين الحيوانية والإنسانية. ويقرر أن للعنف طبيعة محاكية ذو أساس في كل فكر ديني وثقافي ويثبت ذلك بما أسماه (مثلث الرغبة) الراغب/ فاعل الرغبة، والمرغوب/ موضع الرغبة، والمنافس، يقينا منه أن رغبة التملك ضاربة في عمق كل نفس بشرية، وهذه الرغبة محاكية بمعنى أن المرء لا يرغب في شيء ما لما للغرض المرغوب من قيمة في ذاته ؛ بل لأن أمرؤا أخر نظيره قد صيره له مرغوبا بفعل امتلاكه له، أو مجرد الرغبة فيه، وهو ما يجعل رغبة الراغب استنساخا لرغبة نموذج يعيّن له موضوع رغبته ويغريه بالمجاهدة للحصول عليه، وهو ما سينتج عنه أزمة محاكاة لانصباب رغبتين على موضوع واحد وهو ما يؤدي الى اتساع دائرة العنف منذ اللحظة الأولى التي تنذر بتدمير الجماعة بأسرها من خلال أعمال الثأر والانتقام[٢]. وهنا يأتي دور ابتكار وسيلة لتقي الجماعة من خطر الانهيار والتفتت بتقديم تضحية وفي ذلك عودة لطقوس الأديان القربانية، حيث يقع الاختيار على أحد الافراد ليتم معاقبته بالقتل أو الطرد حتى الموت بديلا عن الجماعة وهنا تهدأ رغبة غليان العنف لتحاول الجماعة عدم الوقوع في تلك الازمة العنفية مجددا ثم تنشأ بعد ذلك ولإبعاد تجدد العنف (إبدالا ذبائحيا ثانيا) أو ما يسمى ب(كبش الفداء) يستعاض عنها بضحية طقسية، ضحية من خارج الجماعة لا يؤدي مقتلها الى إثارة الثارات وبذلك تؤدي دورها في تخليص الجماعة من العنف أو أرجاءه وحفظ السلام[٣].

يعيد الناقد (غانس) صياغة فكرة (جيرار) عن العنف والتضحية بعد تشذيبها لتغدو أكثر مطابقة وسير اتجاه النظرية فتشمل مضامين أعم وأوسع من مضامين نظرية (جيرار) لتتناول ما يتعلق بالدين والجماليات والرغبة الخ. يتركنا (غانس) نتخيل قطيعا بشريا تستولي عليه رغبة الاستيلاء على شيء معين وهنا يبدأ الاختلاف الحاسم، فتبعا لـ(غانس) في اللحظة التي يكون فيها الجميع على وشك اطلاق ايماءة الاستيلاء يكون الخوف من الصراع كبيرا لدرجة اجهاض الإيماءات، وتكون تلك الإيماءة التي

من الثقافة الشعبية، والأفلام، وما بعد الحداثة، والاقتصاد، والسياسة المعاصرة، والهولوكوست، والفلسفة، والدين، والانثروبولوجيا التوليدية الخ.

(*) رينيه جيرار مؤرخ فرنسي، وناقد أدبي، وفيلسوف في العلوم الاجتماعية، ولد عام ١٩٢٣ وتوفي عام ٢٠١٥، ألف ما يقارب ثلاثين كتابا تندرج في العديد من الميادين المعرفية مثل النقد الأدبي والنظرية النقدية، والانثروبولوجيا، وعلم اللاهوت، وعلم النفس، وعلم الاساطير، والاقتصاد والفلسفة. عمل في عدد من الجامعات، كجامعة جونز هوبكينز، وجامعة بافلو، وحصل على جوائز متعددة.

[١] أماني أبو رحمة، نهايات ما بعد الحداثة، إرهاصات عهد جديد، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ط١، ٢٠١٣، ٥٨.

[٢] ينظر : رينيه جيرار، العنف والمقدس، ترجمة : سميرة ريشا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ٧- ١٥.

[٣] ينظر : رينيه جيرار، العنف والمقدس : ٧- ١٥.

عينت موضع رغبتها دون أي محاولة لامتلاكها هي الفعل اللغوي الأول (the first linguistic act) وعندها يصبح لدى كل فرد من القطيع وعي بالأخر ووعي بنفسه بوصفه مشاركا في فعل جمعي من خلال توسط العلامة في اكتمال شكلي يقلد فيه كل فرد الأخر عن وعي للمرة الأولى، وبذلك تحقق العلامة أبعادا أخلاقية فهي أولا تجسد التخلي المتعمد عن الشهوة على المستوى الفردي، وثانيا تعلي خيار التصالح الجمعي على الصراع، وثالثا أدرك المجتمع هويته تحت سلطة العلامة التي غدت تحفظ السلام[١].

ويكمن الفارق الرئيس بين نظريتي (جيرار) و(غانس) في أن نظرية (جيرار) اتخذت من العنف أساسا للمحاكاة أو التمثيل، بينما كان تأجيل العنف أو ايماءة الاستيلاء المجهضة هي أساس المجتمع البشري بحسب (غانس)، إذ تعمل هذه الإيماءة أو العلامة على إضفاء الطابع المقدس على الشيء المطلوب ومن ثم يعد هذا الشيء المقدس أساسا لطقوس تعاد بواسطة التمثيل لإنشاء حدث أصلي وأن كان بصورة رمزية على اعتبار أن هذا المشهد أو الحدث الأصلي هو أصل كل الأشياء البشرية من حب وسيطرة وسخرية وتفكير الخ، وبالعودة الى ذلك الأصل يمكننا من فهم وتفسير طبيعة الأشياء.

فيتولد لدى (غانس) مصطلح (الحدث البدئي event originary) الذي ضمنه في كتابه (أصل اللغة ١٩٨١) فيرى" إن أصل اللغة كان حدثا فرديا وأن تاريخ الثقافة الإنسانية تطور توليدي عن ذلك الحدث"[٢]، كما يفترض أن مشهد نشوء اللغة هو مشهد "فريد من نوعه لجنسنا البشري" ليكون مشهد نشوء اللغة وما تبعه من أثار وقفا على الإنسان يحمل في طياته أبعادا رمزية وبذلك يخالف الإشارات الاتصالية لعالم الحيوان.

بيد أن هذا المشهد ينبع من تطور توليدي (وراثي) بمعنى وجود أصل ترجع اليه الإشارات أو العلامات اللغوية الإنسانية وما يبنى عليها من ثقافة وتاريخ ودين فالخبرة الدينية – على رأي غانس– " هي حدس الاستمرارية الشكلية للمعنى الذي عندما يعمم يتحول الى قوة تمسُّ العالم بأسره. ووظيفة هذه القوة الأساسية هي وقايتنا من العنف. فـ(لا مكان للملحدين وقت الشدة) لأننا جميعا نعتمد على الله في أوقات الخطر لتأجيل العنف بنفس الطريقة التي أُجل فيها تمثيل المقدس العنف في المشهد الأصلي"[٣] ، وبذلك تكون العلامة الأصلية للمشهد البدئي هي اسم الله بوصفها فكرة أو علامة مهمة في المجتمع الإنساني، فتمثلت الرغبة في محاكاتها بوصفها علامة ذات طابع قدسي وجِدت قبل الخلق ثم أن هذه العلامة تنسب لمصدر متعال بعيد عن المتناول ولا يمكن الإشارة اليه مباشرة؛ لأنه بناء خيالي ومثالي وعلى الرغم من أنه لا يسهل الوصول اليه، إلا أن الرغبة في تمثيله قد أنتج العلامة التي منعت العنف وأضفت نوعا من الجمالية.

فضلا عن كونها أسست ثقافة، أسست مجتمعا بشريا، فمن العلامة الأولى "نشأ التصنيف اللغوي الجوهري للإشارية [...] وحتى في مرحلتها الأكثر تطورا، فإن اللغة، بل كل لفظة منها، هي إعادة إنتاج

---

[١] ينظر : أماني أبو رحمة، نهايات ما بعد الحداثة، إرهاصات عهد جديد :٤٩- ٧٥. وأيضا : مجلة أنثروبويتكس htpp://www.anthropoet[cs. Ucla. edu/gaintro.htm

[٢] أماني أبو رحمة، نهايات ما بعد الحداثة، إرهاصات عهد جديد : ٥٨.

[٣] حوار حول الشرق الأوسط ومواضيع أخرى، حوار اجراه عمار عبد الحميد مع إريك غانس بترجمة وتعليق موسى الحوشي في تشرين الأول من سنة ٢٠٠١، مجلة معابر .http://maaber.50megs.com

للعلامة الأولى. وعلى عكس الأشياء التي تثير ندرتها النزاع، فإن الكلمات قابلة لإعادة الإنتاج بلا حدود، وعلاوة على ذلك، يمكن لأي شخص إعادة إنتاجها بلا تمييز، وهذه الحقيقة، تبعا لغانس، تربط الفكرة الأخلاقية للمساواة الرسمية أمام القانون بلحظة تأسيس الثقافة– الإنتاج الجمعي للعلامة الأولى"[١]، فاللغة هي عملية مستمرة يتم فيها إعادة إنتاج العلامة الأولى حيث يتم إنشاء أشكالا غير محدودة من التنظيمات الاجتماعية التي تواكب التطور البشري بما في ذلك القضايا الجوهرية المتصلة بحياة الإنسان الدينية والسياسية والجمالية والاقتصادية [...] لتعيد ترتيبها وتوجيهها على وفق محددات تحفظ له كيانه بعيدا عن الصراع[*].

وقد سميت هذه النظرية بالانثروبولوجيا التوليدية " لأن الثقافة البشرية تُفهم على أنها تطور (وراثي) للحدث الاصلي. مشهد التمثيل هو عالم ثقافي حقيقي، لكن يجب تحليله من حيث تطوره الديالكتيكي. تخضع شروط توليد الأهمية للتطور التاريخي، بحيث يتضمن التعبير الرسمي للعلامة دائما علاقة حوارية بالأشكال السابقة"[٢]، فيتكون المشهد البدئي من وجود أكثر من طرف لديهم رغبة للاستيلاء أو الحصول على شيء ما، ولكي تكون هناك عملية حوارية قائمة على أساس التبادل الإشاري بدلا من الصراع والقتال، فينبغي اختراع وسيلة تمكّن من الوصول الى تسوية. فكل طرف يصدر إشارة يكون الطرف الأخر مستقبلا لها وعارفا لمغزاها فيتم دفن رغبة الاستيلاء بالتخلي أي مقاومة رغبة التملّك عن الغرض المحدد بالنظر اليه بوصفه غرضا مقدسا أو ممنوعا منطلقين من تصور المشهد البدئي أو الأصلي الذي تم فيه ابتكار وسيلة إشارية أو علامة لتحقيق الأمن وإرجاء العنف عبر المحاكاة أو التمثيل.

وتعد تلك الإشارة البدئية هي الإشارة الأولى التي يترتب على وفقها عملية مستمرة من التطور التاريخي والثقافي والديني فـ" تبقى كل الأنشطة الثقافية صورية/ مشهدية، حتى لو أُضفي على الصورة/ المشهد طابع ذاتي في الخيال الفردي. والانثروبولوجيا التكوينية هي طريقة تفكير بالثقافة البشرية تستمد مقولاتها الأساسية من المشهد الأصلي"[٣]، وهذا ما يجعل منها طريقة جديدة للتفكير النقدي على أن الفكرة المحورية للانثروبولوجيا التوليدية على وفق تصريح غانس والتي "(لا تمت بصلة الى مصطلح

---

[١] أماني أبو رحمة، نهايات ما بعد الحداثة، إرهاصات عهد جديد : ٥٩، ٦٠.

[*] يلتقي الناقد (أكسل هونيث) في نظريته النقدية التي ضمّنها في مؤلفاته ومن أكثرها بروزا (الصراع من أجل الاعتراف) مع بعض الخطوط العامة لنظرية (غانس) في ضرورة تقبّل الأخر وإيجاد وسيلة مشتركة بينهما تضمن لهما السلام. مع فرق أن (هونيث) ينقل الصراع من مفهومه البدائي من أجل الوجود الى الصراع من أجل الاعتراف ،والاعتراف حسب (هونيث) يتكون من ثلاثة أشكال : هي الحب، والحق(القانون)، والتضامن فيسعى من طريق نظريته الى عتق الفرد من كل أشكال عدم الاعتراف من الظلم والازدراء والاحتقار وغيرها من أمور تطيح الأفراد في الهوة الساحقة للتميز بين المركز والهامش ،فالاعتراف/ التقبل لدى (هونيث) يساوي الوجود، وهو ما يشكّل قوة اخلاقية تغذي وتنمي تطور المجتمع. ينظر : أكسل هونيث، الصراع من أجل الاعتراف، القواعد الأخلاقية للمآزم الاجتماعية، تعريب: جورج كتّورة، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٥.

[٢] الانثروبولوجيا التوليدية، مقال منشور على موقع stringfixer.com

[٣] حوار حول الشرق الأوسط ومواضيع أخرى، حوار إجراه عمار عبد الحميد مع إريك غانس بترجمة وتعليق موسى الحوشي في تشرين الأول من سنة ٢٠٠١، مجلة معابر .http://maaber.50megs.com

"النحو التكويني" لتشومسكي) [*]هي أن اللغة، والثقافة البشرية بشكل عام، بمقدار ما تندرج في باب الـ "تمثيل" representation أو استخدام الإشارات، تصبح وسيلة جمعية "صورية" لتأجيل العنف الذي تولده الرغبة في المحاكاة"[١]، فتدرك الانثروبولوجيا التوليدية الطبيعة الجماعية للتمثيل كما تدرك بأنه في الخطاب العلمي والديني من العبث الإيحاء بأن الإنسان بدأ في مشهد دقيق، ومع ذلك فأن هذا هو التصور المناسب الوحيد لأصل التمثيل البشري؛ لأن كل استعمال بشري للتمثيل هو في الواقع حدث، لحظة تاريخية فريدة من نوعها تعمل على تغيير الكون البشري، فلا يتم تذكرها فحسب بل وتمثيلها أيضا[٢] .

وقد وجدت هذه الفرضية امتدادا لها في الأدائية التي قالت بالحدث أو المشهد البدئي الذي يفترض أن كل ثقافة تبدأ " من انبعاث علامة (إشارية Ostensive) بسيطة يشكلها أتفاق عفوي بين إنسانيين بدائيين أو أكثر وجدوا أنفسهم في حالة من التنافس المحاكاتي"[٣]، ومن هنا تنشأ " أزمة محاكاة حيث يتنافس أعضاء مجموعة صغيرة لا تعرف اللغة وتوظف لأول مرة علامة لغوية إشارية linguistic Ostensive Sign لتعيين الكائن موضع الاختلاف أمامهم. ويحدث أن توظيف العلامة الإشارية قد نزع فتيل الصراع المحتمل أو أرجأه "[٤]، فيبتكر أعضاء المجموعة أو أحد الاشخاص طريقة أو إشارة ما لدرء خطر الطاقات التدميرية وصنع وجود لا عنفي– ولو بشكل مؤقت– وبذلك فقد أدت اللغة بوصفها علامة إشارية أو فعل أدائي الى كبح جماح الرغبة في الاستيلاء وإضفاء نوع من القدسية نتيجة لاستيعاب رغبة الاطراف بتخليها عن النزاع – تساميها – فتجاوزت بذلك إطار التنافس والغيرة لصالح المجموع، فضلا عن تضمينها بعدا أخلاقيا تجلى بالتخلي عن الغرض المراد الاستيلاء عليه وخلق مسافة للحوار تهدف الى احتواء رغبة الاقتتال بإرجاء العنف. وما تمخض عن ذلك الإرجاء من نتائج كالآتي[٥] :

- تحول النظام الاجتماعي الحيواني الموجود الى نظام إنساني على نحو خاص يرتكز على تمثيل سيميائي بدلًا من المحاكاة المادية (Mimesis).
- إن هذا التوظيف للعلامة أكتسب فعالية مقدسة مهمة : الخبرات الجمعية لفعل التهدئة الحادث بوساطة سيميائية بوصفه شيئًا مقدسًا. هذه التهدئة، مع ذلك هي مجرد إرجاء للصراع البدئي المتعلق بالكائن موضع الرغبة، ولكن التوظيف المجدد للعلامة فقط هو الذي يمكنه أن يؤجل

---

[*] تدخل نظرية التوليدية التحويلية أو التركيبية لنعوم تشومسكي ضمن باب اللسانيات اللغوية التي لا علاقة لها بنظرية غانس التي تدخل ضمن الانثروبولوجيا (الثقافة العامة أو علم الإنسان).

[١] حوار حول الشرق الأوسط ومواضيع أخرى، حوار أجراه عمار عبد الحميد مع إريك غانس بترجمة وتعليق موسى الحوشي في تشرين الأول من سنة ٢٠٠١، مجلة معابر .http://maaber.50megs.com

[٢] ينظر : إريك غانس، طريقة جديدة في التفكير، سجلات الحب والاستياء، رقم ٣٥٣، السبت ٢٦ يناير، ٢٠٠٨. Anthropoetics.ucla. edu

[٣] راؤول ايشلمان، نهاية ما بعد الحداثة مقالات في الادائية وتطبيقات في السرد والسينما والفن، ترجمة : أماني أبو رحمة، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٣،١٥٩.

[٤] راؤول ايشلمان، نهاية ما بعد الحداثة مقالات في الادائية وتطبيقات في السرد والسينما والفن : ٢٠٨.

[٥] راؤول ايشلمان، نهاية ما بعد الحداثة مقالات في الادائية وتطبيقات في السرد والسينما والفن : ٢٠٨، ٢٠٩.

هذا التهديد مرة أخرى، مع أن هذا الإرجاء لا يوظف في تقصي الأثر والمفارقات اللغوية، إنما يخدم هدفًا مقدسًا هو الحفاظ على الشخص في المجموعة السيميائية.

- تحتوي العلامة الإشارية دائما على عنصر المفارقة، فتحقق المصالحة من ناحية والاستياء من ناحية أخرى؛ لأنها تمثل الأشياء من دون أن تضعها تحت تصرف الشخص بالكامل.
- إن لهذه المفارقة أثارًا مباشرة في بحث الشخص عن هوية، فبدلًا من فشله المستمر في أن يعثر على نفسه في كومة الآثار السيميائية، يشكّل الشخص ذاته من خلال جدلية (الحب والكراهية) المتجذرة في العلامة الكلية المرتبطة بالكائن، وتؤكد هذه الجدلية باستمرار نفسها من جديد في الحياة الثقافية.

وأما العلامة الإشارية التي نشأت من الاتفاق المتبادل الحدسي بين إنسانين بدائيين فقد بُني على أساسها ثلاثة مواقف[١] :

١- إذا نظرنا الى العلامة بوصفها طريقة للتجاوز والسمو والسلطة التصالحية، فإن النتيجة هي المقدس، أو الدين.

٢- أما إذا ما نظرنا الى العلامة بامتعاض، بوصفها طريقا للوصول الى/ أو لحجب شيء مادي، فإن النتيجة هي السياسة، أو انتزاع سلطة ما زالت تحتاج الى (المرور عبر) العلامة للحصول على ما تريد.

٣- عندما يتأرجح الاهتمام بين الوحدة المغلقة للعلامة والشيء فإن هذا يخلق شعورًا بالمسافة التي تسمح لنا باختبار العلاقة بين العلامة والشيء بمصطلحات جمالية[*] والنتيجة هي مفهوم للفن.

وهذا يعني أن الانثروبولوجيا التوليدية وظفت قوانين المرحلة الأدائية من طريق توظيفها للعلامة الإشارية؛ فهي شكّلت حلا وسطا لدفع أو تأجيل العنف والصراع مؤقتًا الناجم عن المحاكاة وبذلك يتحقق قانون التمثيل، وكبحت مشاعر الرغبة في التملّك/ الاستيلاء على الشيء؛ بإعطاء الشيء هالة من القدسية التي تجعله محظورا فيتكون قانون القدسية، وأحدثت نوعا من التصالح بين الشخصين أو أكثر الراغبين بالحصول على الشيء نفسه لتسامي دافع الرغبة لديهما في اطار يحفظ لهما بقائهما وبذلك أثبتت قانون المصالحة وإرجاء العنف، وأسست نهجا ظلت الذاكرة محتفظة به بوصفه تاريخا وثقافة ترجئ العنف[*] وتحفظ السلام، ومن العلامة التي أضحت تمثيلا أو محاكاة لشيء معين وباتفاق جمعي نشأت اللغة وما ذلك إلا نتيجة للأداء الناجح الذي لعبته العلامة على أصعدة متعددة.

وفضلا عن المشهد البدئي والعلامة فقد عززت الأدائية فكرتها الجمالية عن الإطارات من طريق المشهد البدئي الغانسي، إذ يأتي "اهتمام ايشلمان بفكرة غانس عن المشهد البدئي والفكرة البدئية من

---

[١] ينظر : راؤول ايشلمان، نهاية ما بعد الحداثة مقالات في الادائية وتطبيقات في السرد والسينما والفن : ٢٤٢.

[*] إن أساس المتعة الجمالية تكمن في الحركة البندولية للشعور بين تخيل الامتلاك وتحقق الرغبة، وبين الفشل في تحقيق هذه الرغبة والامتلاك فعليا ستعمل بالنتيجة على منع التشكل التام والكلي لمشاعر الكراهية والسخط. وبذلك تتحقق الخبرة الجمالية وتنجح العلامة في تعطيل العنف ومنع انطلاقه. ينظر : أماني أبو رحمة، نهايات ما بعد الحداثة، إرهاصات عهد جديد : ٣٣٠.

[*] على الرغم من أهمية العلامة في تأجيل العنف إلا أن هذا التأجيل يضم في طياته بقاء الرغبة في معادة الأخر بوصفه خصما حتى لو تم منح مساحة الأمن المؤقت وبالعودة الى تعريف الانثروبولوجيا التوليدية يكون جزءا من الإجابة على هذا الإشكال بانها طريقة تفكير بالإنسان وبثقافته وبما أنها تركز على الجانب الإيجابي الذي يحقق أكبر قدر من الفائدة الإنسانية في حفظ سلامها وأمنها فإن ذلك كفيل بأن يمنحها قوة للثبات كنظرية أصيلة في المرحلة الأدائية.

حقيقة أنهما يؤكدان وبشكل أكثر قوة فكرته الجمالية عن الإطار الخارجي والإطار الداخلي والوحدة الناتجة عن التشابك والتعالق بين الإطارات"[١]، ذلك أن افتراض مشهد بدئي سيعني بالضرورة رسم حالة ذات حدود مغلقة، وبتعبير أخر خلق نظام داخلي مغلق وهنا يتحقق قانون الغلق. وما يعمل على الغلق هو الإطارات التي تعمل على فصل العمل عن أي مؤثرات خارجية، على أن المفهوم العام للإطار قد يتم التعبير عنه بطرق مختلفة.

فيمكن أن يفهم الإطار " على أنه حد زمني أو مكاني أو أخلاقي مفروض على شخص من الخارج. قد ينظر الى الإطار على أن له بعد مقدس من جهة وأنثروبولوجي من جهة أخرى. يصد الجانب الإيماني للإطار أو يلوي، أو يقطع مؤقتا المرور من حالة الى حالة أخرى بطريقة موثوقة. يتم فرض مثل هذه الأطر من أعلى أو من الخارج ولا يمكن التغلب عليها بسهولة أو الشك بها "[٢]، فتمارس هذه الإطارات دورها في تسليط قوة قسرية وإلزامية على الشخصيات بداخلها وعلى المتلقي أيضا وتحدد وظيفته ضمن القبول والتصديق التام لما يجري من أحداث، فيكون المتلقي مجبرا على التفاعل مع تجربة العمل ومعايشتها من الداخل وتمثّلها بعيدا عن أي مؤثرات خارجية. ويلاحظ أن قانون التمثيل من متعلقات ما بعد الحداثة التي استعملتها الأدائية كقانون خاص بها؛ حتى تمكّن المتلقي من تجربة جميع أنواع الأشياء التي رفضتها ما بعد الحداثة لكونها ميتافيزيقية (خدعة)لا وجود مادي لها وبالنتيجة يرفضها الواقع، لكن الأدائية وظفت هذا القانون وكشفت للمتلقي أن ما يتمثله صالح داخل حدود العمل وعليه أن يتقبل ذلك، بمعنى أن الأدائية انطلقت في قانون التمثيل الما بعد حداثي من أجل توظيفه لغاية أدائية ونتائج مختلفة – تمرير القيم والاخلاقيات والتأثر بها– تعد غير مقبولة في ما بعد الحداثة.

وبناءً على ما تقدّم آنفا توفر " العلامة الإشارية والمشهد الأصلي الأداة الأولية التي يمكن أن تساعدنا في وصف الاستراتيجيات الأحدية (monist strategies) التي قطعت الطريق على التراجع والتهكم اللانهائي لثقافة ما بعد الحداثة، وأبرزت أنماطا جديدة من الأنظمة السردية بوصفها أصل الأنظمة السردية المعاصرة والمظاهر الثيمية"[٣]، فتروم الاستراتيجية الأحادية الى رفع التعمية عن اللغة بتأسيس فرضية استقرار المعنى بدلا من الثنائية الضدية بوصفه محددا وثابتا ويمكن إخضاعه للإدراك وهذا ما يسمى بقانون الأحادية. ذلك إن فكرة استقرار المعنى تؤدي الى مرجعيات أو مبادئ ثابتة مما يعني عودة الى المركز، عودة الى المفهوم الواحدي عن العلامة إلا أن ذلك لا يعني " أننا في طريقنا للعودة الى الميتافيزيقيا الساذجة التي تعلق كل شيء على الرب، والتاريخ، والحقيقة، والجمال، أو أي فكرة أخرى مريحة تقطن خارج نطاق خطابنا"[٤]، أنما هي عودة لبعض الرموز الميتافيزيقية التي تتم عن

---

[١] أماني أبو رحمة، نهايات ما بعد الحداثة، إرهاصات عهد جديد : ٣٣٠.

[٢] Performatism, or the End of Postmodernism, Raoul Eshelman, Aurora, col: Davies Group Publisher, 2008, 98. نقلا عن أماني أبو رحمة، الاتجاهات الفكرية والنقدية في مرحلة بعد ما بعد الحداثية، التحولات في مفاهيم الذاتية والتأليف واللغة والاخلاقيات، ورقة مقدمة الى الملتقى الدولي الأول بتقنية التحاضر عن (تحولات بعد ما بعد الحداثة ورهانات المرحلة الجديدة) المنظم من قبل كلية الآداب واللغات/ قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أكلي محند أولحاج، الجمهورية الجزائرية، ٢٩– ٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٢٢، ١٢.

[٣] أماني أبو رحمة، نهايات ما بعد الحداثة، إرهاصات عهد جديد : ٣٣٣.

[٤] راؤول ايشلمان، نهاية ما بعد الحداثة، مقالات في الادائية وتطبيقات في السرد والسينما والفن : ٥٤.

وعي وإدراك بطريقة عملها وليست بتعليق الأمور بسذاجة وجهل مع إمكانية اتاحة الخيارات للاختيار بين قبول ما يقدّم من جمال خاص بالعمل المغلق فقط أو رفض العمل بوصفه انتهاكا للجمال في خضم العلامات اللامتناهية.

ثانيا: الظاهراتية

تصنف أحدى النظريات التي أعيد توظيفها على وفق ما ينسجم وتطورات المرحلة الأدائية على الرغم من أن لها أصولا من القرن التاسع عشر، لكنها في مرحلة الأدائية اكتسبت أبعادا جديدة، أبعادا توازي سرعة العالم وتوجهاته المتعددة، فكانت هذه النظرية من إبداعات هذه المرحلة بما قدمته من إضافات على يد رائدها (جان لوك ماريون)(*) الذي أرسى دعائمها وأضاف لها رؤية جديدة، تختلف عن الظاهراتية الأصولية التي أسس لها (أدموند هوسرل) والقائمة على مبدأ القصدية. إذ يرى (هوسرل) بأنه على الرغم من استحالة التأكد من الوجود المستقل للأشياء، فأنه من الممكن التأكد من كيفية تجليها الآني في الوعي، سواء كان الشيء الذي نستشعره وهما أو حقيقة. يمكن أن نرى الأشياء لا على أنها أشياء في ذاتها، ولكن على أنها مموضعة، أو (مقصودة) من طرف الوعي. فكل وعي هو وعي بشيء ما : عندما أفكر، فأنا على وعي بأن فكري (يتجه نحو) شيء ما. تبعا لذلك، تكون عملية التفكير والشيء المفكر فيه عملية مترابطة داخليا ومتبادلة الاعتماد. إذ ليس وعيي مجرد تسجيل سلبي للعالم، لكنه، وعلى نحو حركي، يشكل ذلك العالم أو (يقصده)(١)، فعلى الرغم بما جاءت به القصدية من إجراء حاولت من طريقه تجاوز الرؤية الأحادية للذات أو للموضوع بتمازجهما واشتراكهما معا في تأسيس المعرفة إلا أنه حدث تطرف بالميل لأحد الطرفين على حساب الآخر – بين الذات والعالم– إذ انحاز (هوسرل) الى الذات بينما انحاز (هايدجر) الى الموضوع(٢).

وما تتغياه ظاهراتية الناقد (ماريون) هو أن تتخطى " منطق القصدية من خلال الحضور غير المشروط وغير الإرادي"(٣)، وهذا ما يشير الى حرية الحضور من أي سلطة أو قيد، فيتحرر الإدراك الحسي من القصد المرتبط ببنيات الوعي، الى ظواهر وأشياء ما كان بالإمكان تحليلها ظاهراتيا؛ لكونها عرضة للتشكيك، فضلا عن كونها خارجة عن الحدود المعقولة أو المنطقية، فتبحث ظاهرية (ماريون) عن الظاهرة وعن داخل الظاهرة وعن معنى الظاهرة ثم تبحث عما هو خلف هذه الظاهرة التي تبحث عن نفسها . كما وتبحث في ظواهر تصنف بفوق الماديات حيث تكون أكثر ارتباطا بالمعنويات وأبعد مما هو مرئي عند البشر، فتتناولها بوصفها أفعالا لها حيز وجودي.

(*) جان لوك ماريون، فيلسوف فرنسي، وعالم ظواهر ومؤرخ فلسفة وعالم لاهوت كاثوليكي روماني وأستاذ جامعي، ولد عام ١٩٤٦ في فرنسا. له مؤلفات تناولت مختلف الجوانب المعرفية واللاهوتية ومنها : الله بلا وجود ١٩٩١، أسئلة ديكارتية : المنهج والميتافيزيقيا ١٩٩٩، المعبود والمسافة : خمس دراسات ٢٠٠١، المرئي والمكشف ٢٠٠٨، الإيمان من أجل الرؤية : حول عقلانية الوحي وعدم عقلانية بعض المؤمنين ٢٠١٧، وله عدّة جوائز.

(١) للمزيد من الاطلاع ينظر : تيري ايجلتون، الفينومينولوجيا والهيرمومينوطيقا ونظرية التلقي، ترجمة : توفيق سخان، مجلة المغرب، العدد ١١، ١ مارس، ٢٠٠٣، ٩٣. وينظر أيضا : إدموند هوسرل، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة : فتحي إنقزو، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.

(٢) ينظر : جاسم حميد جوده، الظاهراتية والرمز، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٦، ٤٦، ٤٧.

(٣) مصطفى علوش، فلسفة الظاهراتية الباطنية، مقال منشور على صفحة سائر المشرق، كانون الثاني، ٢٠٢٠. monliban. org

ويمكن تمثيل الظاهرة في ظاهرية (ماريون) بمثل " الايقونة التي لا يمكن حصر معناها في الرسم والشكل واللون، لأنها في الواقع تفتح آفاقا تتسامى، ولا يمكن بالتالي الإحاطة بها أو الادعاء بامتلاكها أو فهمها إلا بشكل جزئي، ولكنها تدعو دائما الى المزيد من خلال الشهوة eros أو كما يسميها ليفانس(*) الرغبة الماورائية"(١)، إن هذه الايقونة كظاهرة تتخطى حدود هذه التصنيفات (رسم، شكل، لون) فلا يُستطاع حصرها ووضعها ضمن معنى أو إطار ثابت؛ وذلك لأنها متحررة من القصد، فضلا عمّا لهذه الايقونة من أبعاد تبهر الفرد عندما ينظر اليها فلا يتمكن من إدراك الصورة الكلية والاحاطة بجزئياتها المرئية كاملة؛ لأنها تدل على فيض غير مرئي، فيض عابر للزمان والمكان، فهي تكشف عمّا هو مخبوء أكثر مما تُظهر، فتولد لدى الفرد عند رؤيتها رغبة الخوض فيما ليس له وجود عيني.

وما يعد أضافة جديدة للظاهرية هو مفهوم العطاء الذي يعني " المعطيات التي تتسامى عن النقاش أو التشكيك"(٢)، وبذلك يتم الانتقال من الرفض والتشكيك بكل ما هو غير مادي أو غير مرئي – الماورائيات– متصل بعالم روحاني مقدس ذا أثر فاعل بحياة الإنسان الى القبول والايمان بوجوده.

وتدل فكرة العطية على منح الغير لحمي الذي ليس لديه وأمنحه لحمه الذي ليس لدي، وهي فكرة ربما مأخوذة من خلق حواء من ضلع آدم (من اللحم نفسه) ولهذا عندما جاءت حواء لآدم صاح :(إنه عظم عظامي ولحم لحمي! سيسمى هذا الأخير المرأة لأنها خرجت من الرجل)، لهذا يفارق الرجل أباه وأمه ويرتبط بزوجته فيصيران لحما واحدا، أي لحم لحمي أو اللحم الواحد نفسه(٣).وقد اختلفت ظاهرية ماريون عن ظاهرية كلا من (هوسرل) و(هايدجر) في أنهما لم يتمكنا من بلوغ العطاء الجذري، أي اعتبار أن كل ظاهرة تُعطى أولا، فقد بقيت فلسفتهما أسيرة الموضع والموجود هنا (Dasein)(٤).

وأما عن كيف يفهم العطاء فيضع (ماريون) قاعدة مفادها : أن كل ما يأتينا معطى، ولكن هذا العطاء غير مقيد بردّه . ويقدم اختزال ثلاثي: اختزال المُعطي واختزال المُعطى له واختزال المُعطى عينه، وكما يأتي :(٥)

أولا: عندما يغيب المعطي تتم العطية بامتياز، كما في حالة الميراث مثلا، عندما لا يستطيع الميت أن يتلقى أي شيء مقابل عطيته. يقول ماريون في هذا الاطار أن (غياب المعطي المباشر ليس حاجزا أمام

(*) إيمانويل ليفانس، فيلسوف فرنسي من أصل يهودي، من مواليد (١٩٠٦– ١٩٩٥)، أهتم في عمله بمجالات الفلسفة اليهودية والأخلاق وعلو الظواهر والوجود، لعد عدد من المؤلفات منها : (الكلانية واللانهائي ١٩٦١، نظرية الحدس في الظواهر الفينومينولوجية لفلسفة هوسرل ١٩٦٣، غير الكينونة أو ما وراء الناهية ١٩٧٤).

(١) مصطفى علوش، فلسفة الظاهراتية الباطنية. monliban. org

(٢) مصطفى علوش، فلسفة الظاهراتية الباطنية .monliban. org

(٣) ينظر : جان لوك ماريون، ظاهرة الحب، ستة تأملات، ترجمة : يوسف تيبس، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٥، ٢٢، ٢٣.

(٤) ينظر : باسكال تابت، جان – لوك ماريون : من الميتافيزيقا الى الفينومينولوجيا، مجلة المشرق الرقمية، الجزء الأول، كانون الثاني – حزيران، ٢٠٢٠.

(٥) ينظر : باسكال تابت، من أنا؟ الذات في اختبار الذات، مقال منشور على صفحة دار المشرق، بتاريخ ١٧ نيسان، ٢٠١٧. Darelmachreq.com وينظر أيضا المصدر الأساس : la distance, Jean-Luc Marion, Paris, Grassrt, Lidole et 1977.

العطية بل طريقا بين العطية والمعطي والمُنعم عليه) هنا تختزل العطية بذاتها أي بالعطاء وتسمح برؤية ظاهرية العطية التي تُظهر ذاتها على أنها تعطي ذاتها للمعطى له.

ثانيا : عندما ينوجد المُعطى له يغيب العطاء إذ يصبح مشروطا، فالمتلقي يريد أن يعطي شيئا مقابل ما تلقّاه. أما عندما أعطي وأجهل لمن أعطي فالمتلقي لا يستطيع أن يرد العطية وبالتالي لا يستطيع أن يعطي أي شيء مقابل هذه العطية، ولا حتى أن يعترف بالجميل، وبذلك تتم العطية بامتياز.

ثالثا : عندما يعطي المرء شيئا، عندما يعطي موضوعا ذا قيمة مادية، يتبوأ هذا الموضوع كل المشهد الظواهري بكل خصائصه الأعطية المرئية. بالنتيجة يصبح هذا الموضوع أهلا للامتلاك ولا يرى فيه المتلقي سوى شيء من بين الأشياء، موضوع من بين موضوعات هذا العالم يستطيع امتلاكه. فلا تتم العطية فعلا إلا عندما أعطي ما ليس موضوعا كالحب ووقتي والأبوة والاهتمام بالآخر، أو عندما أبذل حياتي في سبيل قضية، الخ. مع هذه العطايا لا أعطي أشياء بل أعطي ذاتي عينها، هذه الذات غير القابلة للتشييء وللموضعة.

ومن مفهومه للعطاء ولهذا الاختزال الثلاثي يصل (ماريون) الى الظاهرة المشبعة " وهو تلك الظاهرة الحدسية التي تتخطى الوعي لتصل الى حدود الوحي وهو غير ممكن إلا في الآفاق التي تتخطى القصدية في الظاهراتية"[١]، فهذه الظواهر تتجاوز الحدس والوعي بمعنى تتجاوز قدرة العقل على الاحاطة بها بصورة تامة، فتنفلت من أي قيود سلطوية كالعقل والذات، وتتشكل من دون معرفة أو إحداثيات مسبقة لدى المُعطي وبذلك يتحرر من المساحة الضيقة التي تفرضها أحكام الوعي. ومن أبرز الظواهر التي يتناولها (ماريون) هو الحب كظاهرة عقلانية وليس نزعة رومانسية انفعالية فـ "يسبغ ماريون الحب بالعقلانية، ويعتبره على درجة عالية من العقلانية، قادرة على الاحتواء، وعلى الاختلاف، كونه يمنح لذاته بلا مردود"[٢]، فيجد أن الحب ظاهرة جديرة بالتحليل لكونه مرتبط بالذات ويحقق الشعور بالذات، لكن بعيدا عن الرغبة في الهيمنة على الآخر. فتنطلق ظاهرية (ماريون) في هذا الموضع من قانون العلاقات الإيجابية، إذ تهدف الى تحقيق علاقات ثنائية إيجابية بين الأفراد أساسها مبدأ متعال.

إن الاهتمام بالحب[*] كظاهرة ليس لمجرد عاطفة وإنما كفعل وحدث يعمل من تلقاء نفسه، أي بوصفه قيمه فعلية وجودية في حياة الإنسان، تجعل الإنسان ذا هوية وانتماء بوصفه إنسانا أو ذاتا

---

[١] مصطفى علوش، فلسفة الظاهراتية الباطنية.monliban. org

[٢] أحمد محسن، عن اعترافات جان لوك ماريون، مقال منشور على صفحة ضفة ثالثة منبر ثقافي عربي، بتاريخ ١٥ أكتوبر، ٢٠٢١.

[*] تعد عالمة الاجتماع الفرنسية (إيفا إيلوز) من الباحثات اللواتي تناولن الحب على وفق تحليل علمي، وأكدت على أن دراسة الحب مسألة مركزية وليست هامشية على الاطلاق كما يبدو لبعض الباحثين إذ بينت ما للحب عندما يُفرّغ من جوهره من دور في انهيار الروابط الاجتماعية وتلاشيها وهذا ما حدث في ما بعد الحداثة، فتدعوا علماء الاجتماع المعاصرين عدم إغفالهم لهكذا ظواهر، وأيضا تدعوا الى تقديم قراءة جدية من منظور علمي يستهدف اكتشاف دور المشاعر في عالمنا اليوم، وترى أنه إذا كان للحرية من معنى فيجب أن تشمل هتك الأستار عن القوى غير المرئية التي تغشي أبصارنا وتشدنا الى بعضنا البعض، ولكنها لا تتناول الحب مثلما فعل (ماريون) بوصفه غير مشروط. للمزيد ينظر : إيفا إيلوز، نهاية الحب، سوسيولوجيا العلاقات السلبية، ترجمة : جلال العاطي ربي، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٢٢.

متكاملة لها سلطة أمام التقنية أو التكنلوجيا المتطورة التي سلبت الإنسان من إنسانيته وحولته الى آلة أو شيء فاقد لإنسانيته تتناهشه أشباح اليأس والضياع. فكان الحب هو ما يميز الإنسان عن باقي الموجودات وهو العطاء بعينه.

فالذات تعطي وتستقبل الحب وتتجلى في فعل الحب، بمعنى أن الحب بوصفه عطاء جذري هو من يعيد تشكيل الذات. فتختبر نفسها في فيض غير محدود، فهي تتلقى العطية وتتلقى ذاتها مع هذه العطية أمام وجه الآخر وأمام الفن وأمام كل ظاهرة لا تختزل بالموضوعات[١]. وبذلك تختلف هذه الذات في انفتاحها على عطية الحب لتكون ذاتا متفائلة واهبة وقادرة. فيُنظر للحب كظاهرة تكاملية تؤسس على الالتقاء بين الأنا والأخر ضمن بوتقة اخلاقية، بديلا عن العلاقات المضادة التي تلغي وتهمش الأخر وتصل به حد الكره، فيُنظر للحب كعطاء يُمنح بلا انتظار مردود أو مقابل وبذا يتحقق القانون الأدائي، قانون التسامي، وبناء على ذلك " يكون غياب شرط المبادلة هو ما يخلق حرية وقرار التشكل كعاشق ذلك الذي (يخسر ليربح)، كلما خسر العاشق (أعطى، أحب) وأضاع، ربح الحب ذاته. باختصار شديد، عندما تدخل الأنا الاختزال الغرامي المترسخ تغير وضعها فتصبح عاشقة وتنتقل الى (الغير)"[٢]، فتختبر هذه الأنا كل الحالات الشعورية وتخوض غمار هذه التقلبات الوجدانية النابعة من داخلها، فهي " الذات التي تختبر ذاتها من خلال اختبارها للظواهر"[٣]، فهي قبل كل شيء ذات متأثرة، تتلقى الحب وتختبره وتكون شاهدة عليه ليصبح طريقة للعيش، فالحب للحب ذاته، فضلا عن كونه طريقة لإثبات الأنا.

وهذا الحب – حسب ماريون– وحده " يستحق الإيمان، لأنه يجعلنا نتصرف مثل الإله"[٤]، بمعنى إن هذا الحب ينقل الذات من كونها ذات خاضعة في أفعالها وسلوكياتها لقيد نابع من العقل أو العاطفة وأحيانا من الذات نفسها أو المجتمع، الى ذات تقدم العطاء وتستقبل العطية من دون نوازع ذاتية داخلية قائمة على المنفعة أو أي نوازع أخرى، فلا هدف لهذه الأنا أو الذات غير الحب بمعناه وتجلياته الأسمى، وبذلك يُفعّل قانون المنظور المؤمن.

ومع (ماريون) يتم الانتقال من الذات العارفة والمفكرة التي تفهم العالم من طريق ذاتها الى الذات المحبة التي تعطي وتستقبل ذاتها من طريق العطاء غير المشروط، فعطية الذات بلا مقابل يعني أن تقبل الذات بأن تتأسس بمن تحب وأن تستقبل ذاتها ممن تحب وأن تصبح أخر في من تحب وهذا الأخر هو (الإله) قبل كل شيء[٥] ، وهذا يشير الى أن الذات تتمثل الإله في الحب من طريق تجلياته وتمظهراته، فيتمظهر هذا الحب الإلهي " بوساطة الوسائل والأشكال واللحظات والأفعال ومراحل الحب"[٦]، وهنا يتم الالتقاء مع الأدائية؛ فالذات الظاهراتية والذات الأدائية كلتاهما محبة ويسعيان الى الخير بديلا عن نوازع الكره والشر في محاولة منهما لتمثل صفات الذات الالهية المتعالية، فتنطلق الذات

---

[١] ينظر : باسكال تابت، من أنا؟ الذات في اختبار الذات.Darelmachreq.com

[٢] جان لوك ماريون، ظاهرة الحب، ستة تأملات : ٢٤، ٢٥.

[٣] باسكال تابت، من أنا؟ الذات في اختبار الذات.Darelmachreq.com

[٤] جان لوك ماريون، ظاهرة الحب، ستة تأملات : ٢٨.

[٥] ينظر : جان لوك ماريون، ظاهرة الحب، ستة تأملات : ٣٢٥– ٣٢٩. وينظر أيضا : باسكال تابت، من أنا؟ الذات في اختبار الذات. Darelmachreq.com

[٦] جان لوك ماريون، ظاهرة الحب، ستة تأملات : ٣٦٥.

سواء أكانت ظاهراتية أم أدائية من الداخل الى الخارج، فتعمل على حب ذاتها ثم تقديم هذا الحب الى الآخر من دون انتظار بديل لهذا العطاء.

الخاتمة :

يبدو أن ما يتجلّى من مسار هذه النظريات المرتحلة في المرحلة الأدائية أن حلقات التطور الطبيعي لا يمكن أن تنفصل عن بعضها البعض، فيبقى الجديد وليد القديم ولكن برؤية منتقاة وتوظيف أكثر مرونة وتناسب مع مستوى الحراك العالمي الدينامي على اختلاف أبعاده، ومما سوّغ لهذه النظريات بالاستمرار وضرورة امتدادها في عصر الأدائية هي الحاجة لها كنوع من الاستجابة للمتغير الثقافي والفكري والاجتماعي الهادف الى التغيير ، تغيير الفكر، وتقبّل الآخر للحقائق والأشياء.